إشكالية الدين والتدين في المجتمع الجزائري "الخطاب المسجدي نموذجا"

لطروش احمد*

طالب دكتوراه، جامعة وهران2 – محمد بن احمد

****

تاريخ الإرسال: 2018/05/01 **تاريخ القبول: 2018/06/09** **تاريخ النشر: 2018/06/30**

الملخص:

يتشكل الخطاب الديني المعاصر من مجموعة أسس تشكّل في تناسقها المرجعية الوطنية والتاريخية، ولطالما كانت المؤسسة الدينية في العالم الإسلامي أساس الحوار ومبدأ التعارف. يمثل الخطاب المسجدي صورة أخلاقية وقيمية في منظومة الحكم والممارسة عند الإنسان الجزائري. وفي هذا المقام عايشت الجزائر كل أشكال التحول والتطور العقلي والإيماني، وعليه سؤال الحداثة والتجديد في الخطاب المسجدي يمثل مرجعية نفسية.

الكلمات المفتاحية: الخطاب المسجدي؛ التجديد؛ التطور؛ الحداثة؛ الإيمان؛ السؤال الديني

Abstract :

Contemporary religious discourse contains a set of foundations that consists the national and historical reference in its harmony. The religious establishment in the Islamic world has always been the basis of dialogue and the principle of acquaintance. The mosque discourse represents a moral and ethical image in the system of government and practice in Algerian man. In this regard, Algeria experienced all forms of mental and religious transformation and development. And the question of modernity and renewal in the Mosque discourse represent a psychological reference.

Keywords: the Mosque Discourse ; Renewal ; Development ; Modernity ; Faith ; Religious question.

* عضو بمختبر الأبعاد القيمية للتحوّلات الفكرية والسياسية بالجزائر- جامعة وهران2

مقدمة:

ينهض الخطاب الديني المعاصر في المجتمع العربي الإسلامي على مجموعة من الثوابت تشكل عوامل الانتماء، والحال أن المتتبع لمسارات الرؤية الدينية في العقيدة والاعتقاد تتحقق له الصورة الماهوية لحمولة الإسلام، لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ "سورة آل عمران، الآية 58".

إن المتتبع للأحداث والقراءات التي تبعت الدول العربية الإسلامية منذ استقلالها وما رافقها من حركات إصلاحية تدعو لإعادة بناء قيم الأخلاق، قيم المجتمع (الجماعة)، قيم المعرفة، قيم التاريخ، ليذهل من حجم وقوة المجاز والتراكم السياقي، والغوص في تداولية الخطاب.

انبثقت تداولية الخطاب في العالم العربي الإسلامي تاريخيا مع تمثلات مدرسة أهل الرأي وأهل النص ونحن جزء من هذا التصور للتاريخ الإسلامي نفكر كجماعة وطنية - وطنيتنا الجزائر- نحاول منذ الاستقلال تجاوز صراع واصطراع الشرق والغرب والرجوع إلى لحظة التأسيس -الدين الوسطية- وقد واكب تطور الدولة الجزائرية مثل تلك المسارات حراكاً فكرياً حثيثاً لبناء ثقافة الإصلاح والتطوير الدينيين على الجزائريين كخطاب انتقائي علاجي للمناهج والمفاهيم.

وتمثل تداولية الخطاب الاعتقادي الذي مثلته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حلقةً جوهرية وفنية في الدعوة، حيث مثّل خطاب الجمعية ثابتا وطنيا يجمع جماعة واحدة موحّدة وفق منظور كلي متجانس في أيديولوجية متجددة قوامها الكتاب والسنة وجوهرها الحوار والتسامح.

يشكل الخطاب الديني بُعد الإنسان في هذا العالم بحيث أنه يرزح تحت أنماط من العيش والأسس، أي أن دلالات الرسالة الإسلامية تقتضي منّا الحكم والفصل في المواقف، والخطاب في لغة العرب من المخاطبة ومراجعة الكلام حيث الرجل الخطيب هو الفصيح حسن الخطبة.

وبناء على هذا يمثّل الإمام الهوية الدينية في الوطن العربي الإسلامي، يتقن مصارف الكلام وحامل مقاصد النص (الكتاب)، بمعنى: الوضع والتكليف وفق ما يقتضيه الشرع، في ظل هذا التحيّين تسعى المؤسسة الفقهية في الجزائر ممثلة في الإمام إلى تجديد بيئة الخطاب الديني إثر تغير ظروف وممارسات الحياة وارتباطاتها، على أنه

الخطاب الذي يحمل الذات بغية الوعي والشعور بالمسؤولية الجماعاتية للدين الإسلامي وللوطن، ولخصوصية الأفراد.

1. واقعية الخطاب:

إن إشكالية بناء واقعية الخطاب تؤسس لفهم مغالط مفاده أن سياسات الاحتواء والحجز والحصر على الرأي تأخذ ما تأخذ من ذهنية الإمام مواقفه وأحكامه -أحكام الشرع- إلا أنه لو نرجع للتاريخ نجد أن مساجد الجزائر تكاد تكون مساجد عصرية لممارسة خطابها المسجدي.

ينبثق الخطاب المسجدي في الجزائر من عمق التراث الجزائري -الواقع المعاش- ويجسد في الوقت نفسه صورة الحوار الديني ومثلا في الآتي: "عاشر حدادا تُضَرِج بالسنّاج، وعاشر عطّاراً، تنل شذا الأزهار، خشبة تلهب المحبة..." أقوال تساق في الدرس والخطبة ليس فقط كونها تعبّر عن الوعي الجمعي بل كونها تؤدي رسالة روحية؛ حيث من الواقعية احتواء المخالف واعتبار فمن نختلف معه.

ولذلك ارتبطت الخطابة باللغة وتغيير المواقف والتأثير في الآخرين، حيث يرى ابن منظور أن الخَطْبَ هي الشأن والأمر وبهذا يتجسد الخطاب في التراث العربي على أنه الانتقال من المجال اللغوي إلى المجال الاجتماعي، وخصوصا إيجاد العلاقة بين الخطاب والسلطة، وعليه قد يُفهم الخطاب على أنه علاقة اجتماعية.

يشكل الإمام جوهر التواصل وعلّة الإطلاق في الخطاب في كونه يتوسّط النص ومقصديته في عالم الوقائع فـ"ما علة وجود أي شيء بإطلاق بدلا من لا شيء؟"[1]، ومعنى هذا أن الإمام يمتلك نماذج قراءة النص كونه حافظا ومفسّرا لكتاب الله وشرائعه.

مما سبق نجد أن "البشر لا يطرحون سوى الأسئلة التي يقدرون على حلها"[2]؛ وعليه الخطاب المسجدي يمثّل مركز تفاعل اجتماعي للمسلمين في كونه يتمثّل الحوار العميق والمتعدّد، إذ يكرّس دور الأفراد وانتماءاتهم، هذا ما يجعل الأسئلة صعبة الفهم، وعليه "ثمة أسئلة لا نعرف أجوبتها لأنه ما من أجوبة حقيقية"[3].

[1] تيري إيغلتون، معنى الحياة، ترجمة عهد علي ديب، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دط، دت، ص21.
[2] المرجع نفسه، ص21.
[3] المرجع نفسه، ص22.

يتمثّل الإمام توجّه الشريعة الإسلامية كهوية وجودية، حيث أنه يعتبر الوجود الاجتماعي للأفراد أساس الفتوى التي يراها الناس دون رغبتهم وسلوكياتهم وهذا ما يمكن ملاحظته في العشرية السوداء.

"إن المواقف الممكنة بإطلاق من الحياة هي مواقف لا يمكن التوفيق فيما بينها، ومن هنا لا يمكن قط لصراعها أن يصل إلى خاتمة"[1]؛ أي أن التصوّر الديني يبني المرجعية الوطنية على ضوء المرجعية الدينية بفعل ممارسات وسطية الإمام والرسالة التي يؤديها في السياق العام.

تمثّل المرجعية الوطنية تأسيسا تاريخيا نظرا لفعل السيرورة في التراث الفكري الذي زخرت به الجزائر، حيث يحاول الإمام الوصول بالوحدة الوطنية إلى مستويات قبول الاختلاف واليسر وعدم التعصّب باعتبار أن البعد الاجتماعي والمصلحي في أغلب الفتاوى والتوجّهات، يراعي اعتبارات المصالح المرسلة والعرف، باعتبارهما الأصول الفقهية.

ينافح الإمام عن معاني القلق الوجودي (الظمأ الوجودي)، انطلاقا من المذهب المالكي الذي انتشر في الجزائر بفعل قبوله للعرف، والذي لا يكون مناقضا لتعاليم الإسلام، بالإضافة إلى تركيزه على الأبعاد المقاصدية كمحاولات في "الوجود الإنساني الطارئ، إذ هذا الاحتمال يفرغ وجودنا العقلي من مضمونه".[2]

بدأ التصور المرجعي للشعب الجزائري في التبلور والتطور مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في العصر الحديث، حيث أنها حافظت على أهم مقوّم في الهوية الوطنية وهو اللغة العربية، كما يعتقد عبد الهادي بن طافر الشهيدي.

يحمل الخطاب المسجدي في الجزائر ملامح إصلاحية أساسها البحث في بنية الخطاب اللساني النصّي أي البحث في بنية اللغة التي يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم ويعبّر أفراد المجتمع في ثنايا الخطاب المتناسق عن حالة النص أو إدراك النص وهذا ما تصبو إليه اللسانيات الوصفية بهدف الوصول إلى بناء مفاهيم إجرائية ذات أبعاد إسلامية تمسّ "الوجود الإنساني".

"... إن الناس بعامة في العصر ما قبل الحديث، كانوا أقل تأثرا بسؤال معنى الحياة منا نحن الحدثيون، ولم يكن هذا وحسب لأن عقائدهم الدينية كانت أدنى مستوى من أن يطالها البحث، إنما لأن ممارستهم الاجتماعية كانت أقل إشكالية بالمثل، لعل معنى

[1] المرجع نفسه، ص23.
[2] تيري إيغلتون، معنى الحياة، ص29.

الحياة يتوقف في هذه الظروف على فعل ما فعله أجدادك بدرجة تزيد أو تقل، وما تنتظره منك الأعراف الاجتماعية المفرقة في القدم..."[1]؛ وفي هذا السياق يحاول الإمام الاشتغال على القضايا التي تشغل اهتمام الساحة الفقهية برؤية ناقدة بعيدا عن زرع بذور الشكّ والتفرقة في نفوس الناس.

سمو رسالة الخطاب المسجدي التي يحاول البعض التشكيك فيها وتحميل هذا الخطاب بعض الأيديولوجيات وأهداف مغرضة مشبوهة كعناوين للإصلاح والتجديد في حياة الناس تبقى دون معنى "... بل إن كلمة معنى تغدو مفردة مشبوهة عند بعض المفكرين ما بعد الحداثيين، ذلك أنها تفترض أن شيئا ما يمكن أن يمثل أو يقوم مقام شيء آخر"[2].

إنّ قياس الوعي الجمعي في المجتمع من خلال بعض المؤشرات مثل الوعي بدور المسجد وتحدّياته تجعل الإمام في مقدّمة الأشخاص المفترض فيهم الخصوصية الأخلاقية والفنية والثقافية لتحديد عناصر الهوية الوطنية، لأنه هو من يتوسّط المرجعية الوطنية بأبعادها الدينية والوطنية، حيث "إننا يمكن أن نكون أحرارا، لكننا بلا شك، لكن نكون أحرارا في أن نكوّن أنفسنا، لأننا فككنا الذات"[3].

يعدّ الطرح المسجدي في الجزائر سياقا ومساقا في الوقت نفسه إذ يعبّر بجرأة عن الأحداث التي عرفتها البلاد والمواقف التي يتعرّض لها المسلمون في كل أرض، ما ساهم في انفتاح الصراع المذهبي والفقهي في نسب تتفاوت من حيث الدرجة لإثبات الوطنية، وعليه تعدّ الذات الجزائرية ذاتا عربية إسلامية، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[4].

"نقصد بالذات -الإمام- فالخصوصية الهوياتية كمانع تربوي من خلال فتح الحوار الهادئ ودرس مبادئ الحكمة والاتّزان كإجابات تقتضي كشف مواطن الغلو وتعرية امتدادات الأيديولوجية، باستخلاص ثقافة التسامح تجسيدا للشرائع السماوية لا كما هي مدركة، "...فمع ازدياد الضغط على الثقافة والدين والجنسية لتلعب دورا بدلا للقيمة العامة المتلاشية، تناقضت مقدرتها على لعب ذلك الدور، وبازدياد تركيز المعنى في

[1] المرجع نفسه، ص31.
[2] المرجع نفسه، ص32.
[3] تيري إيغلتون، معنى الحياة، ص34.
[4] سورة الأنعام، الآية 28.

المجال الرمزي ازداد ذلك المجال انحرافا عن الحقيقة، وبالنتيجة أخذت ميادين الحياة الرمزية الثلاثة جميعا تكشف عن أغراض مرضية"[1].

من خلال الاستطلاع نجد أن أغلب الأئمة من حيث المنهج مالكيين في الجزائر نظرا لقبول وارتباط الشعب الجزائري بالمفاهيم الصحيحة والوسطية للدين الإسلامي.

- **التجربة الدينية:**

تهتم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بمستوى الخطاب كتصوّر مرجعي نفسي وعاطفي يرتبط بدلالات الخطاب الثوري والإصلاحي والوطني لمقاومة الاستعمار والاستلاب الثقافي، تارة بلغة شعبية وتارة بلغة قرآنية حتى ينشط في داخلنا الشعور والانتماء فـ "تنشط في داخلنا قدرة فوق الإنسانية تحررنا من الحدود الضيقة لوجودنا وحياتنا الفردية الخاصة، وتنفخ فينا روحا جديدا وتغير من علاقتنا مع أبناء بلدتنا"[2].

حيث الهدف من ذلك توحيد الأمة، وعليه: "الهدف هو الشيء الذي يتوخاه الفاعل من فعله ويطلبه أو يأمل أن يصل إليه، أما النتيجة فهي ما يصل إليه الفاعل بفعله سواء طلبها أو لم يطلبها، والنجاح في الفعل ليس سوى انطباق الهدف على النتيجة"[3].

مارست الجمعية معاني الإمام كحوار يرضي ويعبّر ويبرهن في الوقت نفسه أن الشعب الجزائري متميّز واحد وموحّد، في مواجهة خطابات الاستلاب، والفتنة الخارجية وهذا ما يترك أثرا سلبيا على الثوابت والمرجعية والوطنية.

حاولت الدولة الجزائرية ممثلة في وزارة الشؤون الدينية تجديد الخطاب الديني من خلال تأهيل الأئمة وتسجيلهم في مستويات وظيفية محاولة منها لدرء أفكار الآخرين فمعنى التأهيل في فهم أداء الخطاب شكلا ومضمونا، حيث "إن الخصائص العقيدية والعاطفية والإرادية لصاحب التجربة تتدخل إجمالا (ولو كشرط لازم لا كاف) في صياغة التجربة الدينية ووقوعها"[4]؛ بمعنى أن الخطاب الإسلامي في الجزائر، خطاب يتدارس اللغة القرآنية من أجل إصلاح واقع الناس إصلاحا حقيقيا نهضويا، "مطابقة القول للاعتقاد (الصدق الأخلاقي)، شيء ومطابقة الاعتقاد للواقع (الصدق المنطقي) شيء آخر تماما، غاية ما أحرزناه إلى حد الآن مطابقة أقوال مدّعي التجارب الدينية لمعتقدهم،

---

[1] تيري إيغلتون، معنى الحياة، ص39.

[2] مصطفى ملكيان، العقلانية والمعنوية مقاربات في فلسفة الدين، ترجمة: عبد الجبار الرفاعي وحيدر نجف، دار التنوير، لبنان، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ط2، 2013، ص462.

[3] المرجع نفسه، ص463.

[4] المرجع نفسه، ص467.

فمن أين لنا الوثوق بمطابقة معتقداتهم للواقع"[1]، أين أن الواقع يتغيّر ويتبدّل باستمرار باختلاف التراث في الجزائر الوطني، وعليه نجد مبادئ أول نوفمبر ذات معانٍ إسلامية سمحاء بامتياز، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

يرزح الخطاب المسجدي في الجزائر ضمن ثنائيات أزّمت المعنى الهوياتي، حيث أصبح الخطاب المسجدي المتداول متخما بالتناقضات وعليه "تعاني الخطابات المسجدية ثغرتين الأولى: أنها قدمت في نص لا تمتلك ألفاظه وصياغاته وضوحا في المفاهيم إضافة إلى أية محاولة لتوضيح دلالاتها، لن تؤدي سوى إلى حرق إجماع أولئك المتفقين"[3]، ويمكننا مناقشة قضايا الإيمان في قضايا أصولية تبحث في ميكانزمات اللغة كخطاب متناسق يحمل القضايا الاجتماعية ذات الأبعاد الاختلافية حيث أنه "حين نحاول أن نحدد مفهوم فإننا لن نقوم إلا بالكشف عن مواطن الاختلاف في وجهات النظر"[4].

- **التدين العقلاني:**

ويحمل مجموعة من السمات التي تعتبر أساسا في الخطاب المسجدي وضرورة يتمسك بها الإمام بغية إدراك مقاصد الشرع. وهذه السمات هي:

السمة 1: فلسفة الحياة

تجدر الإشارة إلى أن معنى التديّن العقلاني، هو فهم النصوص وتمثّلاتها فـ "المتدين العقلاني يطالب الدين بفلسفة حياة شاملة، لكل جوانب حياته ومستوعبة لكافة ثناياها"[5]، والقصد من هذا هو تقدّم الإمام إلى الواقع المعاش بحرية مبديا المواقف الشرعية وموضع اتجاهها.

السمة الثانية: طلب الحقيقة من دون ادعاء واحتكار

يواجه الإمام الخطابات الأيديولوجية ذات الطابع الوضعي وبخاصة خطابات الهامش (الخطابات غير الرسمية) بالأدلة الشرعية؛ وعليه فـ"المتدينون ديانة عقلانية لا يعتبرون

[1] مصطفى ملكيان، العقلانية والمعنوية مقاربات في فلسفة الدين، ص469.
[2] سورة الزمر، الآية 10.
[3] مصطفى ملكيان، العقلانية والمعنوية مقاربات في فلسفة الدين، ص347.
[4] المرجع نفسه، ص348.
[5] المرجع نفسه، ص216.

أنفسهم أصحاب الحقيقة، وإنما يفهمون تديّنهم بمعنى أنهم طلاب الحقيقة"[1]، والإمام يُسهم في تنمية الوعي المشترك كانطباعات أولية، من خلال خطبة الجمعة، مجسّدا العناصر التالية، وهو ما يُصطلح عليه توظيف الخطاب الإسلامي:

-انطلقوا في حركة سلوكية للوصول إليها.

-الشروع والطلب لا يفيد الوصول إلى الغاية.

-من يمثل الاستثناء هو الذي يراعي الضوابط بصورة صحيحة.

ومفاد هذا جملة أن مهمة الإمام تشدّ انتباه الناس إلى الوعي بالوطنية واستقطاب اهتماماتهم الدينية خدمة للروح الجماعاتية (وحدة الأمة).

السمة الثالثة: الممارسة النقدية:

يسلّط الإمام زوايا النظر والتدبير من خلال مصادر الشريعة على أهم قضايا فقه الوقائع، و"النقد هو النظر والتدبر في مجموعة القضايا والتعاليم التي تمنح له باعتبارها دينا فإذا وجدت بينها تعارضا ظاهريا، علمت أن ثمة مرحلة أعمق ترتفع فيها هذه التعارضات"[2]، وبناء على هذا يجعل الإمام المسجد فضاء متنفّسا للمكبوتات، ومعينا مسؤولاً عن تفاؤلات الحياة، وفي هذا المقام نجد الشيخ عبد الحميد ابن باديس، حاول درء ودفع خطابات غير الرسمية التي تحمل إشكالات لا تمتّ بصلة للدين الإسلامي، ولا تمتّ بصلة لتراث وعادات الجزائريين.

وفي هذا الصدد، تدافع المؤسسة الفقهية في الجزائر ممثلة في الإمام عن مبادئ الوطنية، (مبادئ أول نوفمبر) في كلمة موحّدة ونابذة العنف والتطرّف وهامشية الطرح.

والغاية من ذلك هي عقلنة الدين بفضل ثلاث عمليات، حيث أن هذه العمليات تمثل حوار الروح والوطنية معا من أجل تحقيق الغايات التالية:

-إزالة التعارضات الظاهرية.

-الملائمة بين النصوص الدينية المقدسة والمعطيات البشرية (ابن رشد الحقيقة المضاعفة).

-إن النصوص الدينية لا بد أن تتناسق والتطورات المعرفية في كل الأزمنة.

حيث يعتبر الإمام قائدا وممثّلا لعامة الشعب كونه متمسّكا بسلوكيات الرمز الحسن مستعملاً في ذلك منبر الجمعة ومختلف الأنشطة الثقافية التي لها صلة بمبادئ الإسلام.

[1] مصطفى ملكيان، العقلانية والمعنوية مقاربات في فلسفة الدين، ص217.

[2] المرجع نفسه، ص218.

السمة الرابعة: أخلاقية الكون

تعدّ إسهامات الإمام الدعوية إلى النأي بالوطن عن حالات اللاأمن والفوضى مُلْزِمة، لذلك يبقى الإمام أحد مقاربات الوحدة والسلام المنشود في مقابل خطابات الخروج والشطط الراديكالي، وعلى نفس النسق "المتدين العقلاني هو الذي يرى الكون محكوما بنظم أخلاقية في منتهى الدقة فالدين هو الشعور بالأمن في العالم"[1].

السمة الخامسة: ضبط النفس (السلوك الديني)

وإذا كان المسلّم به شرعا أن من مهام الإمام إمامة المسلمين، فمن الواجب عليه مواكبة تطورات الأحداث التاريخية ووعيه بالعواقب والنتائج المترتبة عن دلالات دعوته فقها وأصوليا، وفي هذه الحالة يجب عدم الاستسلام للنزوات المؤقتة والعاجلة، وفي الوقت نفسه إدراك أنه من المستحيل الوصول إلى غاية إيجابية من دون متاعب.، يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2].

السمة السادسة: سيادة الذات

شغلت أوساط المجتمع تيارات دينية عدوانية ليس لها علاقة بالتراث والثوابت الوطنية كونها تمثّل سلوكيات ظاهرية غارقة في الماضوية، فارغة روحيا وهو ما يدعى "سيادة الذات" مجاوزة لبعض الأئمة ممّن انغمسوا في قلب الصراع وأضحوا في تبعية هدفها "التخلص من التبعية الإيجابية من أجل التمرس والسلبية من أجل التمكن"[3]، بل إن بعضهم أصبح طرفا في ذلك الصراع.

السمة السابعة: الطمأنينة بلا اطمئنان

يقول الكاردينال نيومن: "شيئان تجتمع فيها الطمأنينة مع عدم الاطمئنان، الإيمان، الدين والحب"[4]. والملاحظ في هذه السمة هو أن الخطاب الرسمي. بدلا من جمع الناس على كلمة الحق والتقوى ورصّ الصّفوف وتوحيدها، بل عمل على زيادة نبرة خطاب التحامل وأضحى المسجد حامي الأفكار اللاوطنية، أي مؤدلجا.

السمة الثامنة: النزعة الإنسانية

---

[1] مصطفى ملكيان، العقلانية والمعنوية مقاربات في فلسفة الدين، ص219.

[2] سورة آل عمران، الآية 18.

[3] مصطفى ملكيان، العقلانية والمعنوية مقاربات في فلسفة الدين، ص223.

[4] المرجع نفسه، ص223.

ويواصل الخطاب الإسلامي تكيفه مع الأحداث في الجزائر، وبعد انقضاء محطات كبرى عاشت فيها الجزائر الاستقلال أحدث أيامها، توصّلت المؤسسة إلى صيغة المسامحة وانتهت بحقن دماء المواطنين الجزائريين، ويعدّ هذا الإنجاز انتصارا عقليا للدين، حيث أن "التدين العقلاني يحتم على صاحبه خدمة أبناء جلدته لمحض اعتبارات إنسانية وذلك حينما ينتصر المرء على ثلاثة معيقات ذهنية أولا حينما نواجه إنسانا ينبغي نسيان الماضي، ثانيا علينا مضافا إلى تجاوز الماضي تجاوز ظواهر الأفراد، أما ثالثا لا بد أيضا أن نعتق أنفسنا من معتقداتنا الخاطئة في نظر المؤسسة الإصلاحية"[1].

السمة التاسعة: مصارحة الذات

النظرة الواقعية للذات (المحايدة)

1. أن ينظر لنفسه في وقتها الحاضر، ويتقبل ذاته كما هي.
2. الحوار مع الماضي.
3. ألا يرى حسناته ومناقبه أشد أو أقل مما هي عليه فعلا.

بناء على هذه السمة وجد الإمام نفسه في إعادة بناء منهج الدعوة وتجديد الخطاب مبيّنا فقه الوقائع منهجا معقلنا ورشيدا وتغليبه منطق الحكمة والموعظة الحسنة.

السمة العاشرة: استيعاب هفوات الآخرين

لقد رسمت المؤسسة الفقهية الجزائرية البدايات الأولى للخطاب انطلاقا من التاريخ الإسلامي والتاريخ الثقافي للمجتمع بطريقة تربوية حضارية ينتبها التديّن الوسط الذي يرافقه قدر لا بأس به من الوعي.

والمتدين العقلاني يحاول تفهم نقاط ضعف كل البشر، علينا إذا ما نظرنا إلى الإنسان أن ننظر إليه كضرورة وفاعلية متواصلة في التجربة التاريخية التي عرفها المجتمع المالكي، فـ"المتدين العقلاني يعفو عن الآخرين وعن نفسه أيضا، فتتسع شفقته وصفحه للجميع"[2] بما في ذلك المؤدلجين.

السمة الحادي عشر: الثقة بالنفس

يعدّ الفصل بين اللغة والموقف الاجتماعي في سياق اللسانيات مطالبةً بضرورة متابعة الأنشطة الإنسانية في التخاطب، إذ إن جوهر اللغة الطبيعية هو النشاط الإنساني ليكون مفهوما ومقبولاً، لدى الآخر في اتصال مزدوج، وعليه فالإمام "لا يتراجع كونه

[1] المرجع نفسه، ص225.

[2] مصطفى ملكيان، العقلانية والمعنوية مقاربات في فلسفة الدين، ص225.

المتدين المتعقل عن متبنياته ومبادئه حتى لو خالفه فيها كل المجتمع، إنه يقبض على ما يؤمن به"[1]، أي أنه ملزم بشرح وتفسير مقاصد الشريعة الإسلامية وفق سياق النصوص، ونقل ما يتّصل بتحليل الخطاب كي يغدو تأويلا صحيحا لمقتضيات الواقع.

فكل رمز (مدلول) داخل الجملة (السياق) يرتبط بما قبله وما بعده أي أن التغييرات الطارئة على البنية الظاهرة تدفع الإمام إلى تفسيرها تفسيرا منطقيا حتى تعبّر عن قضايا المجتمع (تطور المجتمع)، حيث يجب "أن يبلغ المجتمع الصلاح حتى يتبناه هو أيضا، ويكتسب صلاحه من صلاح المجتمع فهذا يضمر في داخله إشكاليتين أساسيتين:

1. منطقية: فالمجتمع ليس سوى أفراده.
2. واقعية: المجتمع المثالي لن يتحقق.
3. التصور المتزن للواقع هو أن علينا المكوث فيه"[2].

فالعلاقة بين النصوص هي علاقة بين الأفراد محدّدة باعتبار التأويلات نسبية والمسلّم به أن النص ليس إلاّ مظهرا من مظاهر الاستعمال اللغوي غير قابل للتحديد.

السمة الثانية عشر: تحاشي الوثنية

الوصف العملي والعلاقة بين التركيب اللغوي والخصائص الفكرية في إدراك كيفية استخدام الناس للأدلة الشرعية يؤدي إلى الشطط في صلب حديثهم وخطاباتهم هذا من جهة، ومن جهة أخرى كيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث –تأويل النصوص حسب اعتقاداتهم وعواطفهم-.

الذي لا جرم فيه أن اللسانيات التداولية إنما هي لسانيات الحوار التي تدرس اختلاف الخطابات حسب المذاهب واختلاف في التراث الجزائري ومن ذلك (مالكية، إباضية)، أو أدى إلى الاختلاف في وسائل التبليغ لدى الإمام، وعليه التعبيرات الاصطلاحية في لغة الخطاب الديني تعد قراءة سوسيوثقافية، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[3].

نظرا لما عرفته الجزائر من اختلافات في الخطاب الديني عبر تاريخها، أدركت الإحالات التي طرأت والتعبيرات، والأنماط اللغوية الجديدة فتصادمت فيها مع الخلفيات

---

[1] المرجع نفسه، ص227.

[2] مصطفى ملكيان، العقلانية والمعنوية مقاربات في فلسفة الدين، ص227.

[3] سورة المجادلة، الآية 11.

الأيديولوجية، وعليه رصدت المؤسسة الفقهية آليات اشتغال الخطاب النقدي والبلاغي، قديمه وحديثه من عمق المجتمع الجزائري، والثوابت المرجعية والحضارية لهذا الوطن تحاشيا لإطلاق الأمور النسبية بغية الوعي بظاهرة المعارضات، وباندماج آفاق القديم بآفاق الحديث في صنع الذاكرة الفنية العربية الإسلامية الجزائرية بعيدا عن أن اعتبار يحكم الزمن في التقويم الذاتي.

تتجسّد مسؤولية الخطاب الديني ابتداء من تداولية المفاهيم التي تستند إليها المرجعية، والحال "ألا نتخذ مطلقا سوى المطلق، ونصدق أن كل ما عداه أمور نسبية"[1]، وعليه السعي لنشر دين الله عقيدة وشريعة، وأخلاقا إنما هو تثبيت للإيمان، فالإيمان بالوطن أساسه الإيمان بالإسلام، والقصد بذلك تغيير الوسائل والأسباب وكيفيات التأثير في المجتمع.

"كان تعاقب الرسالات السماوية تجديدا للنسق الديني في فكر هذا الإنسان"[2]، ومنه آليات القراءة تعتبر آلية ملازمة للنص، أي أن حالات المرجعية الوطنية هي نفسها حالات التناص والإنتاجية النصية التي تعدّ تبريرا سياقيا فمطالبة الإمام بالدعوة لتجديد الخطاب المسجدي هو مطالبة بتجديد ظروف تأويل النص، وتحيين النوازل بإزاحة النصوص المؤدلجة (الزمان والمكان) من مكانها ومحاولة إحلال أخرى بديلة عنها لتحقيق الإجادة.

لا يمكن للإمام أن يكون مبلّغا أمور الدين للناس كافة في ظلّ اختلاف وتركيب اللغة وأنظمتها الأيديولوجية وعليه أن من أقوى الأسباب التي أدّت إلى انتشار تأثير فكر التعصّب والشبهات العقدية، هو هذه الآلية السياقية والعقلية الاختزالية، "فالعقل –في مفهوم الإسلام- ليس (عضوا)، وإنما هو (فعل التعقل) وبه بالقلب والنُّهى واللب، وبالنظر والتدبر والتفكر والفقه كان التعبير القرآني عن سبيل هذا المنهج من مناهج النظر وعن مضمون هذا المصطلح"[3].

"وفعل التعقل إنما يتم من إنسان يمتلك سبلا أخرى للنظر والإدراك وموضوع النظر والإدراك، وعوالمها من الكثرة والتعقد إلى الحد الذي يستحيل تحصيل معارفها، أو من الممكن والمتاح من معارفها"[4]، وبناء على هذا شروط الإمامة هي كالتالي:

---

[1] مصطفى ملكيان، العقلانية والمعنوية مقاربات في فلسفة الدين، ص228.

[2] محمد عمارة، أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، لبنان، ط1، 1998، ص11.

[3] محمد عمارة، أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، ص20.

[4] المرجع نفسه، ص20.

- أن يكون ما يدعو إليه في اجتلاب نفع أو دفع ضرر أساسه القرآن.
- أن يأتي به في موضعه ويتوفّى به إصابة غرضه (شرح السنة).
- أن يقتصر منه على الذي يتكلّم مراعاة المخاطب.
- كما حدّ لقواعد التعامل شروط ثلاثة هي: قاعدة القصد، الصدق، الإخلاص.
- شرط الاقتصار على قدر حاجته في الكلام (مراعاة البناء والسياق) وهو حوار الثوابت.

مما سبق يتّضح أن المؤسسة الفقهية في الجزائر تستند إلى الشريعة الإسلامية نصا ومقصدا "... كذلك فإن النقل –وهو الوحي- في المنظور الإسلامي، ليس مقابلا للعقل والعقلانية، فحجية النقل مترتبة على حجية الرسول الذي بلّغه"[1].

2. في معنى الضرورة:

إذا كان الخطاب الفلسفي مبني على رؤية عقلية قوامها الواقع وإحالاته المختلفة فإن الخطاب الديني مبني على الوحي، ورسائله الحاملة لمعاني العلاقات الإنسانية الوجدانية والعاطفية منها، فبمقتضى هذا يمكن إدراك تناصية الخطاب وإسقاطها على المجتمع الجزائري خصوصا، بمرحلة ما يعرف العشرية السوداء، يمكن فهم وإدراك مستوى عمق الأزمة وفي الوقت نفسه ضعف آليات القراءة (قصور في المناهج، تأويلات مضارعة، تضمينات وحشو بمعتقدات لا ترتبط بتاريخية المجتمع الجزائري المتمثلة في المرجعية الإسلامية)، وعليه ظهور الخطاب المتشدّد في الفضاءات والأوساط الشعبية، شكّل زاوية نظر وبقعة ضوء على مفاهيم خاطئة في بناء الدولة، إذ "تنشأ الدولة على أساسها الأصلي، وهو الوجود المجتمعي المحتاج بطبيعته إلى تنظيم، ولذلك لا يجوز تعميم ما يظهر في حالة الدولة الدينية على التاريخ كله، كما لا يجوز الوقوف عند الظاهر، المتنوع في التاريخ، دون اعتبار الحقيقة الجوهرية الكامنة في طبيعة الوجود الإنساني الاجتماعي، فالدولة لا تتأسس بطبيعتها على الدين، وإنما تتأسس على المجتمع المتعين والمتشكل في المكان والزمان، وتعيين المجتمع وتشكيله في المكان والزمان هما العملية التي يمكن أن يفرض الدين نفسه من خلالها كأساس للدولة..."[2].

---

[1] المرجع نفسه، ص21.

[2] ناصيف نصار، مطارحات للعقل الملتزم (في بعض مشكلات السياسة والدين والأيديولوجية)، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص155.

مما نسلّم به أن الثوابت الوطنية للجزائر المستقلة مرجعيتها الشريعة الإسلامية ضرورة، وبالضرورة بيان أول نوفمبر نداء يعلي من كلمة الوحدة والأمة والجماعة ولا غرو في ذلك أنها مفاهيم، ومعاني جوهرها القرآن الكريم وأسسها الحرية، وأمام هذا السلوك القرآني لم يجد الإنسان الجزائري حرّيته إلاّ ضمن أفق هذا النص (القرآن الكريم) سندا ومرجعا، و"أمام حركة التحرر الإنساني حدود لا تستطيع تجاوزها، فالتحرر الديني يعني حرية التصرف في الدين وتجاه الدين، ضمن حدود تطور النزوع العقائدي في الإنسان، والتحرر السياسي يعني حرية التصرف في الدولة واتجاه الدولة، ضمن الحدود التي تنبع من طبيعة السياسة في الوجود الاجتماعي"[1].

وفي هذا المقام إنه لا نجد أن السلطة الحاكمة، وهي تدير شؤون العامة تسعى لتمثّل الخطاب التداولي للقرآن الكريم كمقاربة لمجموعة مفاهيم (العهد، الشهادة، الثقة)، لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾[2].

وفي هذا الصدد جاء دور الإمام مرشدا مؤنسا للفعل الحضاري والتربوي للمجتمع، سعيا منه للتمييز بين الخلط في قراءة النصوص على ظاهرها، وما تنطوي عليه (المسكوت عنه) وعليه رسالته تحذّرنا "من خلط الدين، الذي هو عماد الأحاسيس وسنامها لما يشابهه أحيانا"[3].

يعتبر سعي الإمام في إدراك فقه الوقائع على أنه جملة من النصوص الشرعية، تحتاج منّا إلى إظهارها واستظهارها على حسب المقام والسياق مستندا في ذلك إلى الإعجاز القرآني وما مهامه في ذلك ببسيطة نظرا لانعطافات اللغة ومساوقات النصوص، و"مجمل ما يقدمه الدين من رسائل وتبليغات لا تخرج عن دائرة فن الخطاب... ولكن الأداة الخطابية البليغة لم تحقق الغرض المبتغي منها كلغة وحسب، وإنما تجاوزته إلى الدرجة التي طغت فيه على مضمون هذا الخطاب ولبه الحقيقي"[4].

---

[1] المرجع نفسه، ص191.

[2] سورة المعارج، الآيات من 32 إلى 35.

[3] عبد الجبار الرفاعي، تمهيد لدراسة فلسفة الدين، دار التنوير، لسان مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، العراق، ط1، 2014، ص69.

[4] المرجع نفسه، ص74.

يقول سبحانه وتعالى في قرآنه: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

استنادا على سبق، عاشت الجزائر صراع أفكار ووثنيات الأيديولوجيات الوضعية الممثّلة في تيارات وأفكار ومذاهب وأشخاص لطالما تطاولوا على المرجعية الدينية والوطنية للشعب الجزائري، لأن ضرورة العمق الإسلامي للشعب الجزائري والارتباط الوجداني والعقلي والعاطفي، كان معجزة وعليه الثوابت الوطنية حصن منيع وقوة أخلاقية وقانونية تقوى على من لا يقوى، "من لا يقوى على مشاهدة المعجزة في داخله، ولا يتأمل تجليها حيث النقطة التي يقف عليها في هذا العالم، ذلك هو من لا دين له، الاعتقاد، أو ما يسمى عاده بذلك، هو قبول ما يفعله الآخر بإرادة التفكير، وإرادة التعاطف معه فيما فكر وشعر به، والدين هو خدمة الإحساس فلا إكراه فيه ، ولذا عليكم أن تكونوا جزءا منه، لأنه الحرية"[2] التي يسعى إليها كل إنسان مؤمن.

نعتقد جزما أن كل إمام يؤُمّ مأموميه إنما هو يصغي ضرورة لتعاليم الإحسان، كركن أساسي في الإسلام وتأسيس للإيمان بالوطن ومبدؤه في ذلك: "هلا أصغيتم لنبض قلوبكم كيف يتباطأ كلما مر عليه الزمن، ثم إن لكم ذاكرة وتقاليد حياتية، ولكنكم بلا دين، ولذا فإن مشاعركم أصبحت غريبة عنكم، وكأنها اضطراب سيكولوجي نحيل، أو صورة كاريكاتورية عارضة، وهل تريدون لصورة الدين أن تتألف من هذه الأجزاء الميتة والملامح الفاسدة؟ هل يمكن للأجزاء الميتة أن تعود للحركة والحياة مرة أخرى عبر الالتحام بأجسام أخرى؟"[3].

ومن خلال ما مضى، أن نقول أن الخطاب المسجدي في الجزائر تأسس عبر تلك التداولية اللسانية التي تنهض بها المؤسسة الفقهية كونها الموجه لأنواع الخطابات المقدمة لمجموع المتلقين وهي تستقي جوهر أحكامها ومضامينها من تلك الروافد العربية والإسلامية والتاريخية والحضارية وفي الوقت نفسه تراعي تلك الاختلافات الجوهرية بين مختلف المرجعيات.

قائمة المصادر والمراجع:

1. تيري إيغلتون، معنى الحياة، ترجمة عهد علي ديب، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دط، دت.
2. عبد الجبار الرفاعي، تمهيد لدراسة فلسفة الدين، دار التنوير، لسان مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، العراق، ط1، 2014.

[1] سورة النحل، الآيتين 8-9.

[2] عبد الجبار الرفاعي، تمهيد لدراسة فلسفة الدين، ص105.

[3] المرجع نفسه، ص89.

3. محمد عمارة، أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، لبنان، ط1، 1998.
4. مصطفى ملكيان، العقلانية والمعنوية مقاربات في فلسفة الدين، ترجمة: عبد الجبار الرفاعي وحيدر نجف، دار التنوير، لبنان، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ط2، 2013.
5. ناصيف نصار، مطارحات للعقل الملتزم (في بعض مشكلات السياسة والدين والأيديولوجية)، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 1986.